المحاضرة الأولى

النضال الوطني في جنوب افريقيا في القرنين الثامن عشر و التاسع عشر

شكلت البعثة الاستكشافية البرتغالية بقيادة بارتيليميو دياز التي وصلت إلى منطقة الكاب عام ١٤٨٦ في محاولتها للوصول إلى الهند بداية للوجود الأوروبي في جنوب أفريقيا.

و بعد وصول الأوروبيين إلى جنوب أفريقي بوقت قصير بدأ أبناؤها كفاحهم المسلح ضد هؤلاء الغزاة، و قد أطلق المؤرخون الغربيون تسمية "الحروب الاستعمارية" على تلك الأعمال العسكرية التي قامت بها قبائل جنوب افريقيا ضد الدخلاء الأوروبيين، أن هذه التسمية تكون صحيحة في حالة تطبيقها على الأوروبيين، و لكنها من جانب القبائل الأفريقية تعتبر تلك العمليات العسكرية حروبا تحريرية خاضها أبناؤها ضد الغزاة الأجانب الذين سيطروا على ممتلكاتهم و أراضيهم. و قد وقع عام ١٥١٠ أول اصطدام مسلح بين أبناء جنوب أفريقيا و البرتغاليين، عندما تصدي أفراد قبائل الحموتنت لمجموعة برتغالية نزلت إلى البر الافريقي فقتلوا منها ما يزيد على ٦٦ جندي من ضمنهم نائب الملك. و تعتبر هذه المعركة بداية للصراع المرير الذي خاضته تلك القبائل ضد الغزاة الأوروبيين.

و لما كانت مستعمرة الكاب في بدايتها ضعيفة لا تملك القوة الكافية لمقاومة السكان الأصليين و أنها بحاجة إلى خدمات أبناء جنوب افريقيا و منتجاتهم الزراعية و الحيوانية خاصة لحوم الأبقار و منتجاتها من الألبان. فإن المستعمرين لم يستعملوا أسلوب القوة للقضاء على مقاومة جنوب افريقيا. خاصة أفراد قبيلة الحموا تنتوت بل اتبعوا معهم أسلوب الخداع و الأغراء عن طريق تقديم المصوغات المعدنية و الأدوات النحاسية و النبيذ و التبغ، بعضها كهدايا لزعماء تلك القبائل و بعضها بأسلوب المقايضة. و مما سهل أقامة مثل هذه العلاقات معرفة بعض

زعماء قبائل الحمو تنتوت التكلم بلغة انكليزية ضعيفة كانوا تعلموها من البحار الأنكليز الذين تحطمت سفنهم قرب سواحل رلأ الرجاء الصالح.

و قد احترس حكام مقاطعة الكاب كثيرا في معاملتهم لزعماء قبائل الحمو تنتوت، محاولين ارضاءهم بشتى السبل، ذلك لكي لا ينفروا منهم و يهاجروا إلى عمق القارة الأفريقية و عندها تفقد المستعمرة المصدر الأساسي الذي يمولها باللحوم و الألبان، وقد أشتهر أول حاكم هو لندي لمستعمرة الكاب "جان فان ريبك" ١٦١٨-١٦٧٧، بنجاحه في أيجاد علاقات وطيدة مع زعماء قبائل الحمو تنتوت خاصة مع الزعيم "أوتشوماي" حتى دعاه مرة لتناول طعام الغداء على مائدته في مدينة الكاب.

و لكن بعد ثبت الهو لنديون مركزهم في جنوب افريقيا تغير موقفهم من زعماء القبائل المذكورة، ففي عام ١٦٥٨م و بعد مرور سبع على تاسيس مستعمرة الكاب، القت السلطات الهولندية القبض على "أوتشومای" و أجبرته على الأقامة في جزيرة "روبين" الواقعة بالقرب من سواحل مستعمرة الكاب المطلة على نقطة التقاء المحيط الأطلسي بالمحيط الهندي، وهكذا كان أوتشوماي أول سجين سياسي من أبناء جنوب أفريقيا، و لا زالت تلك الجزيرة حتى الوقت الحاضر تستعمل من جانب السلطات العنصرية ف حكومة اتحاد جنوب أفريقيا كمنفى للمطنيين من أبناء جنوب أفريقيا المناهضين لسيسة التمييز العنصري كالزعيم الأفريقي "نلسن ماندل".

لقد بدأ الهولنديون حروبهم ضد قبائل الحمو تنتوت بحرب عام و تباعدها عن البعض الآخر و بتفوق المستعمين الهولنديين بالسلاح و لهذا لم تتمكن القبائل المذكورة من أبداء مقاومة كافية و فعالة في وجه المحتلين الأجانب، فتمكن الهولنديون من إجلاء قبائل الحمو تنتوت عن أراضيها و الإستيلاء على مواشيها و اعتقال زعيمها أوتشوماي. و كانت قبائل البوشمن أشد مقاومة و أكثر شجاعة من الحمو تنتوت، و لقب الأوروبيون قبائل البوشمن بأصحاب الحراب السموية، لذلك هاجموهم كهجومهم على الحيوانات الوحشية الكاسرة،

و من القبائل التي كان لها دور بارز في مقاومة الأوروبيين هي قبائل البانتو الجنوبية، و لم يصطدم حكام مستعمرة الكاب مع تلك القبائل إلا بوقت متأخر، ذلك لأن الحدود الجنوبية لأراضي قبائل البانتو كانت معزولة عن حدود مقاطعة الكاب بأراضي تسكنها قبائل الحمو تنتوت و البوشمن، و بعد أن توسعت مساحة مستعمرة الكاب كيرا على حساب أراضي الحمو تنتوت و البوشمن أصبحت على تماس مباشر مع قبائل البانتو الجنوبية، و في هذا الوقت أصبحت مستعمرة الكاب أكر قوة عما كانت عليه في عام ١٦٠٢م عندما وصل "جان فان ريبك" إلى رأس الرجاء الصالح مع مائة من العمال التابعين لشركة الهند الشرقية الهولندية وقام ببناء مدين الكاب كمحطة بحرية تقوم بتقديم الخدمات لسفن شركة الهند الشرقية الهولندية في رحلاتها بين أوربا و الشرق. و بعدها بدأت هجرة الأوروبيين إلى مدينة الكاب من مقاطعة فراندر و هولندا، و هم من الفقراء المعدمين الذين لم يجدوا مجالا للعمال في بلادهم فجاؤوا إلى جنوب أفريقيا لخدمة شركة الهند الشرقية الهولندية، و أطلق عليهم الأوروبيون أسم البوير و تعني الفلاح في اللغة الهولندية.

و في نهاة العقد الثامن القرن السابع عشر رحل إلى مقاطعة الكاب حوالي ٢٠٠ من الميجونوت الفرنسيين الذين هاجروا من مقاطعة لا روشيلي في فرنسا بسبب سياسة الأضطهاد الديني، ثم وفدت الجاليات الألمانية و البولندية. و في نهاية القرن السابع عشر بلغ عدد المهاجرين الأوروبيين مانية آلاف نسمة و بعد قرن من الزمن زاد عددهم إلى ١٥ ألف نسمة و بلغت مساحة المستعمرة ضعف مساحة المنخفضة.

و في عام ١٨١٥ أصبحت مستعمرة الكاب تابعة لأنكلترا بصورة نهائية بعد أن قرر ذلك مؤتمر فيينا، ثم قامت الحكومة البريطانية بتعويض الحكومة الهولندية بمبلغ قدره ستة ملايين جنيه أسترليني.

و أمتاز هؤلاء المهاجرون الجدد بالحيوية و النشاط، فبدأوا بتشييد المدن و كان أشهرها مدينة بورت اليزابث، كما سيطروا على مساحات واسعة من الأراضي الخصبة عن طريق الشراء أو استعمال القوة و ارغام السكان الأصلين على الهجرة إلى الصحاري القاحلة، فاشتد الصراع بين المهاجرين الأوربيين و السكان الأصليين الذين أدركوا

خطورة الوجود الأوروبي في بلادهم و الذين أبح يهدد ممتلكاتهم و أراضيهم فنشبت سلسلة من الحروب بين المهاجرين الأوروبيين و السكان الأليين، و في هذه المرحلة أصبح افراد قبائل البانتو القوة الرئيسية في جنوب افريقا بالنسبة إلى القبائل الأخرى و هم يمتازون بتفوقهم الحضاري و العددي عند مقارنتهم بقبائل الحمو تنتوث و البوشمن، و دعا بعض زعمائهم في هذا الوقت المبكر إلى تنظيم اتحاد قبلي من قبائل جنوب افريقيا للوقوف في وجه المستعمرين الأوروبيين.

و كانت قبيلة الكسوسا أول قبيلة البانتو التي حاربت المستعمرين البيض ففي عام ١٧٧٩ و قع أول اصطدام مسلح بين البوير و قبائل الكسوسا عند نهر فش بعد أن أزدادت حدة الأستيطان على جانبي التهر بعد هجرة البوير إلى الشمال من مقاطعة الكاب، فتمكن البوير من اجبار هذه القبائل على ترك أراضيها، و في عام ١٨٢٦م وقعت حرب عنيفة بين البوير و قبائل الماتابيلي و انتصر البوير على هذه القبائل و أجبروها على ترك أراضيها و الأستقرار في روديسيا الجنوبية و أصبحت تعرف منذ ذلك الوقت باسم اقليم "ماتيلاندا"، و قد استمرت هذه الحروب بين الأفارقة و المهاجرين البيض فترة قرن كامل من الزمن و من أشهرها: حرب ١٧٧٩-١٧٨١، ١٧٨٩-١٧٩٢، ١٧٩٩-١٨٠٢، ١٨١١-١٨١٢، ١٨١٨-١٨١٩، ١٨٢٤-١٨٢٥، ١٨٢٨-١٨٢٩، ١٨٤٦-١٨٤٧، ١٨٥٠-١٨٥٢، ١٨٧٧-١٨٧٩.

و سمى المختصون بتاريخ جنوب أفريقيا هذه الحروب: حرب الكافر الأولى، الثانية ...العاشرة.

و من المعارك الشهيرة في تاريخ كفاح السكان الأصلين ضد الغزاة الأوروبيين، معركة ١٦ تشرين ثاني ١٨٢٨ على ضفاف نهر "أنكوم" بين البوير و قبائل الزولو، فقد الزولو فيها ثلاثة ألاف قتيل من ضمنهم زعيمهم "دينجان"، حتى تحولت مياه النهر إلى اللون الأحمر لكثرة الدماء التي سالت فيه، فسمي النهر بنهر الدم. لقد وجد البوير بزعامة اندريز بريتوريوس ضربة قوية إلى الزولو و هم أقوى مجموعة من القبائل انذاك في جنوب افريقيا من الباستو الجنوبيين، و أقسموا قبل المعركة أن يعتبروا ذلك اليوم مقدسا في حالة انتصارهم على شعب الزولو.

قائمة باهم المصادر والمراجع:

–هارلود تمبرلي،ا.جورج غرانت،ت:لويس اسكندر،محمد علي أبو درة:أوربا في القرنين التاسع عشر والعشرين١٧٨٩/١٩٥٠، مطابع سجل العرب،القاهرة ١٩٦٧

– زاهر رياض: الاستعمار الأوربي لإفريقيا، القاهرة ١٩٦٠

– جلال يحي : التنافس الأوربي في شرق إفريقيا، القاهرة ١٩٥٨.

– جلال (يحي): تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، ، المكتب الجامعي الحديث، مصر، ١٩٩٩ م،

– محمد فاضل(على الباري)، سعيد(إبراهيم كردية): المسلمون في غرب إفريقيا تاريخ وحضارة، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٧م،

[)]– محمد السيد(سليم): تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين، ط٢ ، دار الفجر الجديد للنشر والتوزيع، مصر ٢٠٠٤ م

–فيصل (محمد موسى): موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، منشورات الجامعة المفتوحة، بلا مكان، ١٩٩٧ م

– شوقي عطا الله(الجمل)وآخرون: الموسوعة الإفريقية، م ٢ ، اليوبيل الذهبي لمعهد البحوث والدراسات الإفريقية، مصر، ١٩٩٧ ،

– عبد الحميد(بطريق، عبد العزيز أنوار): التاريخ الأوروبي الحديث، دار الفكر العربي، مصر، ١٩٩٥ ،

– محمد بن ناصر (العبودي): أيام في النيجر، لبنان، ١٩٩٤ م،.

–عبد الله عبد الرزاق(إبراهيم): المسلمون والاستعمار الأوروبي لإفريقيا، عالم المعرفة للنشر والتوزيع الكويت ١٩٨٩ م،

– فيج–حي–دي: تاريخ إفريقيا، تر: دار السيد يوسف نصر، دار المعارف، بلا مكان ١٩٨٢م،

- رعد مجيد (العاني): تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، بلا مكان، ٢٠٠٧م،

– جفري (برون): تاريخ أوروبا الحديث، تر: علي المرزوقي، دار الأهلية للنشر والتوزيع، بلا مكان، ٢٠٠٦م،

- عبد الله عبد الرازق (إبراهيم)، شوقي (الجمل): دراسات في تاريخ غرب إفريقيا الحديث والمعاصر، مصر، ١٩٩٨م،

–Mnguni–three hundred year history of south Africa vo:1 Cape town. 1952.P.14.